مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب المجلد 9 العدد 1ب، 2012، ص ص 415- 429

البنيوية التكوينية وإشكالية المصطلح في القراءات النقدية المعاصرة

د. نورالدين صدار *

ملخص

ترمي هذه الدراسة إلى بيان المكانة الابستمولوجية لمصطلح "البنيوية التكوينية" في القراءات النقدية العربية المعاصرة انطلاقا من تحديد مفهوم ' التكوين ' في الخطاب النقدي الغربي المعاصر. ولما كان المصطلح دخيلا على النقد العربي المعاصر، فقد اختلف الدارسون العرب في تحديد مفهومه الذي أخذوه عن النقد الغربي، فانعكس ذلك على قراءاتهم وممارساتهم النقدية. لأجل ذلك تناولت في هذه الدراسة محورين أساسين يفضي أحدهما إلى الآخر. ففي المحور الأول ألقيت الضوء على مفهوم التكوين الأدبي كما تمت صياغته في الخطاب النقدي الغربي وبالأخص عند أحد أبرز أعلام المنهج البنيوي التكويني ' لوسيان غولدمان '، لأتخذ منه، في المحور الثاني، منطلقا ناقشت من خلاله المفهوم كما ورد في القراءات النقدية العربية، والذي تعددت مصطلحاته، لأخلص في الأخير إلى أن النقد العربي المعاصر لم يستقر عند مفهوم واحد الأمر الذي ترتب عنه بروز اتجاهين مختلفين في توظيف مصطلح البنيوية التكوينية في الممارسات النقدية العربية.

إشكالية المصطلح:

قبل مناقشة إشكالية المصطلح "البنيوية التكوينية"، نشير إلى أن وضع المصطلح العربي في العصر الحديث طرح إشكاليات كبيرة في المجال الألسني والمجال النقدي حيث شهدت الساحة الفكرية والثقافية العربية ظهور مصطلحات نقدية جديدة لم تكن مألوفة ومعروفة على الساحة النقدية العربية، مما أثار أزمة نقدية كبيرة استعصت على الحل. ''وقد شهدت الحياة الثقافية والأكاديمية والمعجمية حركة عربية ناشطة للتعامل مع هذا الانفجار المعجمي والاصطلاحي الجديد سواء ضبط المفاهيم أو على مستوى إيجاد مقابلات أو موازيات مترجمة لهذه المفاهيم. وقد واجهت اللسانيين والمترجمين والنقاد والمجامع اللغوية وهيئات التعريب في الوطن العربي مشكلات كبيرة ومستعصية وهي تعالج هذه الإشكالية.''[1]

وبالرغم من الجهود التي بذلها الألسنيون والمعجميون والمترجمون، إلا أن الإشكالية ما زالت مطروحة، إذ لم يستقر المصطلح النقدي العربي على حال. فهناك مفاهيم متعددة للمصطلح

© جميع الحقوق محفوظة لجمعية كليات الآداب في الجامعات الأعضاء في اتحاد الجامعات العربية 2012.

* كلية الآداب واللغات والعلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة معسكر، 29000، الجزائر.

الواحد، ولم تتفق الدراسات النقدية على كثير من المصطلحات والمفاهيم ذات الأصول العربية. وقد عبر الباحث 'فاضل ثامر' عن أسفه لوجود كثير من الاضطراب والتباين وعدم الوضوح في ترجمة المصطلح اللساني والنقدي، وقد أوعز سبب هذه الإشكالية إلى عدم التزام الكثير من المترجمين واللسانيين والمؤسسات الأكاديمية وغيرها بالجهود المشتركة المثمرة في هذا المجال، مما أدى إلى ظهور أكثر من مقابل ترجمي للمصطلح الواحد، وغياب ضوابط مشتركة.. [2]

وإذا كان هذا الوضع يتعلق بالمصطلح بشكل عام، فإن المصطلح النقدي يواجه مجموعة من الإشكاليات التي يتعين التصدي لها. فإشكالية المصطلح النقدي العربي الحديث مرتبطة أساسا بأصوله التكوينية المعقدة بوصفه حصيلة لقوى جذب وطرد متباينة. وهي:

1 ـ المصطلح النقدي في موروثنا النقدي والبلاغي.

2 ـ المصطلح النقدي في أصوله الغربية المترجمة.

3 ـ صراع المناهج والمفاهيم والنظريات والعلوم اللسانية والسيكولوجية والاجتماعية والأنثروبولوجية وغيرها.

4 ـ محاولة تجاهل المصطلح النقدي بأنواعه أو السعي لتوليد مصطلحات جديدة بطريقة اعتباطية أو انطباعية."[3] ويذهب الباحث "مولاي علي بوخاتم" مذهب "فاضل ثامر" حينما رأى أن إشكالية الخلط والاضطراب التي مست المصطلح النقدي، أضحت إشكالية من إشكاليات الثقافة الحديثة وهي مرتبطة في الأصل بأسباب أهمها:

1 ـ إشكالية الأصالة المتجلية في الممارسات الثقافية، وذلك حين نقل مصطلح أنتجته ثقافة معينة، ويستعمل في حقل معرفي آخر دون مراعاة خصائصه التي اكتسبتها ضمن حقل الأصل، الأمر الذي يوجد مصطلحات ذوات مفاهيم تحيد عن المسافات الثقافية المخصصة لها.

2 ـ إشكالية المعاصرة المتجلية في الممارسات الثقافية الأكثر ترددا وتنوعا على نقل المصطلح من ثقافة غربية إلى الثقافة العربية من دون مراعاة الخصائص التي تتميز بها."[4]

و في هذا السياق تطرح إشكالية مصطلح البنيوية التكوينية نفسها بإلحاح، فقد أبانت المتابعة الحثيثة للقراءات النقدية أن النقاد والباحثين العرب ـ الذين اشتغلوا في هذا الحقل المعرفي ـ لم يستقروا على توظيف مصطلح واحد مما يدل على تباين مواقفهم في تناول مفهوم المصطلح. وقد كشفت الدراسات النقدية العربية أن النقاد استعملوا أربعة مصطلحات، أكثرها

شيوعا مصطلح "*البنيوية التكوينية*" ثم تليها على التوالي مصطلحات: "*البنيوية التوليدية*" و"*البنيوية التركيبية*" و"*البنيوية الدينامية*".

إن الإشكالية التي يطرحها استعمال المصطلح لا تقف عند حدود الاختلاف الشكلي في التوظيف، بل ترجع في الأساس إلى تباين مواقف الباحثين في تمثلهم وتصورهم للمنهج التكويني ولجهازه المفاهيمي، وما انجر عن ذلك من اختلاف في قراءة الأعمال الإبداعية. فمفهوم التكوين ليس رديفا للتوليد أو التركيب.. ومن هذا الباب أدركنا أهمية هذه المسألة وخطورتها على تمثل الخطاب الأدبي.

و حتى نتمكن من فهم حقيقة إشكالية مصطلح "البنيوية التكوينية" في الممارسات النقدية العربية التي تبنت المقاربة التكوينية، رأينا من المفيد الوقوف عند مفهوم المصطلح "Structuralisme Génétique" كما حدد في الخطاب النقدي الغربي، وفي ضوء ذلك يتم تقويم القراءات العربية للمفهوم.

مفهوم التكوين في الخطاب النقدي الغربي

يكشف استقراء الأبحاث النقدية الغربية التي وظفت مصطلح Structuralisme Génétique أنها اتفقت على مدلول موحد، ولم أجد واحدا من الباحثين الغربيين من استعمل مصطلحا آخر غير مصطلح "*التكوين* Génétique"، وهو يعني البحث عن العلاقة بين النص الأدبي ورؤية مبدعه والتاريخ. وبهذا تتحقق صفة التكوين للبنية. يقول " تيري إيجلتون" ((وما يبحث عنه "غولدمان" ..... هو جماع من العلاقة البنيوية بين النص الأدبي ورؤية العالم والتاريخ نفسه، ليظهر الكيفية التي يتحول بها الموقف التاريخي لمجموعة أو طبقة اجتماعية إلى بنية عمل أدبي، عن طريق رؤية العالم عند هذه المجموعة أو الطبقة. ولا يكفي البدء بالنص أو العمل لكي ننطلق منهما إلى التاريخ أو العكس كي تتحقق هذه الغاية، فما يلزمنا هو منهج جدلي يتحرك دوما بين النص ورؤية العالم والتاريخ، بحيث يكيف المنهج كل واحد منها مع الآخر وينظر إلى كل واحد منها في ضوء الآخر.))[5]

إن مفهوم "*التكوين*" لا يتحقق إلا بتحرك عناصر الجدلية المتمثلة في الإبداع والرؤية والتاريخ، فالجدلية القائمة بين هذه العناصر هي التي تحقق صفة التكوين، أي أن العمل الإبداعي لا يفسر كعمل ذاتي إلا بالبحث عن عناصر تماثله في الواقع، وبالتنقيب عنها تنشأ صفة التكوين التي كانت العامل الذي يتماهى وراء الإبداع من حيث هو رؤية وشكل. ومن هذا المنظور فإن البنيوية التكوينية ليست تركيبا أو مزجا أو انعكاسا بين مضمون وواقع أو "داخل وخارج"، أو مكون بانٍ وسطح، إنما جدلية بين هذا وذاك. وانطلاقا من هذا المبدأ ندرك رفض البنيوية التكوينية مفهوم " الانعكاس " الآلي الذي يتنافى وصفة التكوين.

جاءت البنيوية التكوينية فأحدثت تغييرا شاملا في علاقة الإبداع بالواقع، فأرست فرضياتها الأساسية، والتي حددها "ل. غولدمان" في ((أن كل سلوك إنساني هو محاولة إعطاء جواب دلالي على موقف خاص ينزع به إلى إيجاد توازن بين الفعل والموضوع الذي يتناوله، أي العالم المحيط به.))[6] معنى هذا أن صفة التكوين لا تتحقق في البنيوية التكوينية إلا من خلال التوازن الذي أشار إليه "ل. غولدمان" بين بنيات عالم الإبداع وبين البنيات الذهنية لبعض الجماعات عن طريق *"التماثل"*.

حددت البنيوية التكوينية ـ من خلال طروحات "غولدمان" وتلامذته ـ علاقة العمل الإبداعي بالمجموعة التي ينتمي إليها، إنها علاقة تبرز ببساطة من الحقيقة التاريخية والاجتماعية لأنها مرتبطة بها كما يقول "غولدمان" ((وأعني أن هذه الإبداعات يمكن أن تنال بسهولة أكثر كدراسة بنيوية من الحقيقة التاريخية التي تربط بينها، والتي تعد ـ أي الإبداعات ـ جزءا منها أعني أيضا أن تظهير علاقات هذه الإبداعات الثقافية مع بعض الحقائق الاجتماعية والتاريخية يشكل مؤشرات ثمينة تخص العناصر البنائية لهذه الحقائق.))[7]

يكشف هذا الطرح النظري عن حقيقة المنهج البنيوي التكويني. فالدراسة التكوينية لا تتحقق إلا بشروط، منها "التماثل" المفترض أن يتجسد بين الإبداع أو العمل الفكري والحقيقة التاريخية. فظهور هذه العلاقة شكل من أشكال تكونها. كانت هذه هي الخطوط العريضة لصياغة مفهوم البنيوية التكوينية كما حددت في أصولها ومرجعياتها النظرية، فهل تمثلت المقاربات النقدية العربية هذا المفهوم في ضوء هذا التصور النظري؟

مفهوم "البنيوية التكوينية" في القراءات النقدية العربية

بين استقراء الدراسات النقدية التي تم عرضها ومناقشتها عن بروز أربعة مصطلحات وظفها الباحثون والنقاد العرب الذين اعتمدوا البنيوية التكوينية منهجا نقديا لمقاربة الإبداع العربي وهي: البنيوية التكوينية "البنيوية التوليدية" "البنيوية التركيبية" "البنيوية الدينامية" وكلها ترجمات حرفية للمصطلح الفرنسي "Structuralisme Génétique".

لم يول الباحثون العرب شأنا كبيرا لهذا المفهوم، فكانت ترجماتهم لشكل المصطلح لا للمفهوم الذي يحتويه، ومن هذا الباب اكتنف المصطلح الغموض وعمه الاضطراب، ومن هذا المنطلق كان تعثر النقاد في تصور دقيق وشامل لرؤية المنهج، ولجهازه المفاهيمي،ذلك أن التصور الخاطئ للمنظور التكويني ترتب عنه تصور خاطئ أيضا في مفاهيمه وأدواته الإجرائية، وفي توظيفها.

يعرف "ميجان الرويلي" و"سعد البازعي" "البنيوية التكوينية" في قولهما: ((البنيوية التكوينية أو التوليدية، فرع من فروع البنيوية،نشأ استجابة لسعي بعض المفكرين والنقاد الماركسيين للتوفيق بين طروحات البنيوية في صيغتها الشكلانية، وأسس الفكر الماركسي أو الجدلي، كما يسمى أحيانا، في تركيزه على التفسير المادي الواقعي للفكر والثقافة عموما))[8].

وواضح من هذا المفهوم الذي يكتنفه كثير من الغموض والإبهام، أن الباحثين لم يستقرا على مصطلح واحد في تسمية المنهج، ولم يحسما الموقف، بل تركا الخيار للقارئ لينتقي المصطلح الذي يريد، فهل مفهوم التكوين مرادف لمفهوم التوليد؟، ثم إن الباحثين اعتبرا البنيوية التكوينية فرعا من فروع البنيوية، وهذا رأي ضعيف ينم عن عدم تمثل الباحثين للمنظور الفكري والمنهجي للبنيوية التكوينية، فهي لا تخرج في نظرهما على أن تكون نوعا من التركيب أو المزج بين منهجين (البنيوية الشكلابية والمنهج الإجتماعي الجدلي)، وهذا لا ينسجم مع روح النظرية البنيوية التكوينية كما أشرنا آنفا.

وقد وجدنا هذا التصور عند "محمد بنيس"، فهو في مدخله المنهجي[9] لم يحدد مفهومه "للبنيوية التكوينية"، إذ ركز كل جهوده على التعريف بالمنهجين "البنيوي الشكلاني" والاجتماعي الجدلي ليصل إلى القول ((إن التيار الاجتماعي الجدلي يؤمن قطعا بالتحليل الداخلي للعمل الأدبي لن يوصلنا إلى القبض على الدلالة المركزية للنص، أي الكشف عن الرؤية، ويعتقد صادقا بأن الطرائق الشكلانية والبنيوية تحول النقد الموضوعي إلى مجرد تحليل وصفي،ذي آفاق ضيقة لا تستوعب ما يتحرك خلف البنيات اللغوية))[10].

وواضح من هذا النص أن الباحث أشار إلى منهجين متعارضين أحدهما يطمح في التحليل الخارجي للنص والآخر مصر (بضم الميم وكسر الصاد) على المحايثة الداخلية له، وكأن الجمع بينها حل للإشكالية القائمة بينهما. فلم يستعمل "م.بنيس" مصطلحا دقيقا للدلالة على البعد التكويني لمنظوره النقدي، واكتفى باستعمال مصطلح " *البنيوية التكوينية* " في سياق حديثه عن المبادئ التي ارتكز عليهما "غولدمان"[11]. ورغم الإشارة التي وردت في عنوان الدراسة (البنيوية التكوينية)، إلا أن "م. بنيس" لم يلتزم بتطبيق المنهج الذي أعلن عنه، واكتفى بالتركيز على المنهج الاجتماعي الجدلي، وعلى المنهج البنيوي الشكلاني. واتضح من هذه القراءة أن تصوره للمنهج "البنيوية التكوينية" لم يخرج عن التركيب والجمع بين المنهجين الاجتماعي الجدلي والبنيوي الشكلاني، وفي هذا تلفيق يدل على قصور في فهم المنهج "التكويني" وفق تصور "غولدمان"، ولم يشر الباحث في مقدمته المنهجية ما يؤكد على أنه وعى النهج باعتباره جدلية قائمة بين رؤية وأداة أو بين مكون باني وبنية سطحية تشكل تمظهرا من تمظهراته. والمتفحص

للمرجعيات الأساسية لدراسة محمد بنيس، يتبين له أن ما ذكره الباحث يجعلنا نطمئن إلى الرأي الذي ذهبنا إليه*.

أما الباحث السوري "محمد عزام " فقد كشف عن استعمال مصطلح "االبنيوية التكوينية"، ودل استخدامه له على تمثل تصوره النظري كما حدد خطوطه العريضة " ل. غولدمان " فهو ((كمقاربة تربط بين داخل النص وخارجه مستفيدة من المناهج النقدية الجديدة ومتجاوزة إياها إلى تفسير البنيات الخارجية في المجتمع. ذلك أن اختراق البنية الثقافية والإيديولوجية والاجتماعية لفضاء النص الأدبي يعني وضعه في سياقه التاريخي وربطه بالبنيات الاجتماعية التي أسهمت في إبداعه.))[12]

وأجد الباحث في موقف آخر يستعمل مصطلح "*التوليد*" للدلالة على مفهوم "*التكوين*"، غير أن ما يؤخذ عليه، المراوحة في الاستعمال الذي يؤكد على تردد الباحث في قوله التالي: ((يطلق "غولدمان" على منهجه النقدي (اسم البنيوية التكوينية أو التوليدية) (بنيوية) لأن اهتمامه ببنية المقولات التي تكشف عن رؤية خاصة للعالم يفوق اهتمامه بمضمون هذه الرؤية نفسها، و(توليدية) لأنه يركز على الكيفية التي تتولد بها هذه الأبنية العقلية على المستوى التاريخي، أي يركز على العلاقة بين رؤية العالم والأوضاع التاريخية التي تولدها.))[13]

وبالرغم من وضوح تصور المفهوم في ذهن الباحث "محمد عزام"، وبغض النظر عن المصطلح المستعمل من قبل الباحث، إلا انه لم يكن وفيا لتصوره عند التطبيق فثمة فرق بين التصريح النظري والممارسة النصية للمنهج، مما يؤكد على تذبذب المفهوم والمنهج في ذهن الباحث. فلا وجود للتماثل بين الفهم والتفسير أو بين الرؤية والأداة. فتحليل البنية السطحية المتمثلة في عناصر (الشخصية الروائية، بنية المكان، وبنية الزمان)[14] لم يقابلها تفسير للبنيات الذهنية وللكيفية التي تولدت بها هذه البنيات على المستوى التاريخي والمستوى الاجتماعي.

ومن الباحثين الذين وظفوا مصطلح "*البنيوية التكوينية*" الباحث التونسي "الطاهر لبيب"، وقد أبان في المقدمة المنهجية[15] عن مفهوم المصطلح، ويبدو أنه أدرك مدلوله، مما يؤكد تمثله للمنهج البنيوي التكويني كما بلوره "لوسيان غولدمان" وتجلى ذلك من ثراء المراجع وتنوعها التي اعتمد عليها في أصولها الغربية، وأخذ من المنهج الغولماني ما هو أساسي فيه بما ينسجم وطبيعة الجنس الأدبي (الشعر) الذي كان محل تجريب، غير أنه لم يوضح موقفه الصريح إزاء تعامله مع الجهاز المفاهيمي للمنهج لكنه أكد أن ((القارئ سيلقى...ما هو جوهري من خطوات لوسيان غولدمان البنيوية التكوينية، سيكون قد عرف أن هذه الخطوات جرى تليينها، وذلك لأن الأهمية التي أولياها للسان .... ـ أكبر من تلك التي نجدها عند غولدمان))[16].

أخلص مما سبق إلى أن "الطاهر لبيب" قام بتلبيين وتطويع خطوات منهج "غولدمان" ليجعلها أكثر وظيفية ومرونة تنسجم مع جنس الشعر، وهو من الأجناس الأدبية التي يصعب مقاربتها في ضوء هذا المنهج. والأهم من كل ذلك أننا نلاحظ عند الباحث انسجاما بين تصوره لمفهوم المنهج، وبين وظيفته، وهذا ما جسدته الممارسة التطبيقية.

و إذا كان "الطاهر لبيب" تمثل المنهج الغولماني وطوعه لإنجاز قراءة شعرية لزمرة الشعراء العذريين، وبالتالي الوصول إلى نتائج كانت غير (متوقعة) في نظره. فإن الباحث المغربي "لحميداني حميد" يعد من النقاد الذين تمثلوا المنهج البنيوي التكويني، بل حاول تجاوزه بما ينسجم والإبداع العربي.

فعلى مستوى المفهوم فإن طرح لحميداني يؤكد تمثله للتصورات النقدية كما صاغها "غولدمان" عن خطوات النقد السوسيولوجي الذي يستند إلى أفكار "لوكاتش". يتجسد مفهوم التكوين كما بين الباحث على،جانب "*الفهم* La compréhension" وجانب "*التفسير* L'explication" للبنية العميقة الدالة "La structure significative"، والرؤية للعالم " La vision du monde".و قد وقف الباحث "لحميداني" عند مفهوم المصطلح قائلا: ((إن مفهوم البنية "Structure" و مفهوم التكوين "Genèse" هما الأساس الذي تقوم عليه البنيوية التكوينية "Structuralisme Génétique"، من حيث إن المرحلة الأولى .... - هي المتعلقة بدراسة البنية، وفهمها. وأن المرحلة الثانية المتعلقة بدراسة التكوين، أي ربط العمل بالبنى الفكرية الموجودة خارجه، أي تفسير هذا العمل))[17].

يتضح مما سبق أن "لحميداني حميد"*، تمثل مسألة المفهوم (البنيوية التكوينية) تمثلا ينسجم مع روح النظرية التي أرسى قواعدها "غولدمان"، فلم يتصور لحميداني المفهوم على أنه جمع بين المنهج البنيوي الشكلي والمنهج الاجتماعي الجدلي كما رأينا عند "محمد بنيس، فهو ((لا ينحصر في ربط البنية الفنية ببنية أوسع، هي البنية الإيديولوجية والاجتماعية، ولكنه يقتضي أيضا رصد هذه العلاقة في حالة من الحركة المستمرة للتاريخ، ولا يتم تحقيق هذا العمل الأخير إلا في ضوء تعرف الناقد على العوامل السلبية والعوامل الإيجابية التي تشكل العلاقة الجدلية بينهما ديناميكية الحركة التاريخية نفسها.))[18]

مثل هذه الرؤية لمفهوم التكوين تكشف عن تصور شامل للمنهج في أصوله ومرجعياته الغربية فلا يقتنع "لحميداني حميد" بوجود "التماثل" بين الإبداع والواقع لتحقيق صفة التكوين التي لا ترصد إلا في الحركة المستمرة للتاريخ أي من خلال تفاعل وديناميكية الحركة التاريخية.

واستعمل باحثون آخرون مصطلح "*البنيوية التوليدية*" و منهم "جابر عصفور" "سمير سعيد حجازي"، والباحثان اللبنانيان "رفيق رضا صيداوي" و"يمنى العيد"، ومن مصر "مدحت

الجيار". وقد أبان "رفيق رضا صيداوي" عن استعماله للمصطلح "*البنيوي التوليدي*" حين قال: ((شكل النهج البنيوي التوليدي "Méthode Structurale Génétique" القاعدة الأساسية التي تحددت بموجبها منهجية البحث.و مثلت آراء "غولدمان" أحد أبرز ممثلي المنهج "*التوليدي*" وهو أحد المنظرين لسوسيولوجيا النص الروائي، نقطة الانطلاق الأساسية للبحث.))[19]

يستفاد من أدبيات الباحث أن مصطلح "*التوليد*" الذي استعمله يتضمن التصور المنهجي الذي حدد في مرجعيات "غولدمان" النظرية، وقد علل الباحث لاستخدامه لهذا المصطلح قائلا: ((على الرغم من شيوع ترجمة المصطلح الأجنبي "Structuralisme Génétique" بـ "البنيوية التكوينية" نظرا لارتباط بالتكوين الجنيني المتوارث، إلا أنني آثر أن استخدم مصطلح "البنيوية التوليدية" الذي سبق لعدد من كبار النقاد العرب أن استخدموه، مثل "صلاح فضل" و"جابر عصفور")).[20]

ومما يمكن الاطمئنان إليه أن "رفيق رضا صيداوي" تمثل الأصول النظرية للبنيوية التكوينية التي حددها "غولدمان" ((ففهم النص الأدبي "Compréhension" يغدو مرتبطا بتناسقه وتماسكه، أي انطلاقا من لغته الخاصة التي تسمح بالبحث عن البنية الإجمالية للنص الأدبي بوصفها بنية دالة. أما التفسير "Explication" فيغدو بحثا عن ذات فردية أو جماعية تنهض البنية عليها...))[21]

وإذا كان الباحث "رفيق صيداوي" قد كشف بوضوح عن مفهومه للمصطلح "*التوليدي*"، وهو مفهوم كما رأيناه ينسجم مع التوجهات المنهجية الغولدمانية، فإن "صلاح فضل" وظف مصطلح "البنيوية التوليدية" دون أن يوضح مفهومه، وجاء ذلك في سياق حديثه عن المناهج النقدية حيث قال: ((أشير.. إلى بعض الدراسات التطبيقية في الثقافة العربية التي استخدمت منهج التوليدية في تحليل ظواهر الأدب العربي.))[22]

أما الناقد 'جابر عصفور' فقد استخدم مصطلح "التوليد" لوصف منهجه "البنيوية التوليدية"، وقد ضمنه مفهوما يقوم على جدلية المراوحة بين 'الداخل' و 'الخارج'، فلا يستقل فهم الداخل إلا بالعودة إلى الخارج باعتباره بنية أشمل وأوسع، أي البنية التي أنتجت العمل الأدبي، والذي لا يمكن فهمه إلا في ضوء البحث عن مكونه الباني. فالعمل الأدبي من منظور 'جابر عصفور' بنية لها مكنها الباني، بل هو مجموعة من الأبنية تنتظم في بنية من العناصر المتلاحمة."[23]

إن مفهوم البنيوية التوليدية كما تمثله 'جابر عصفور' لا يخرج عن إقامة حوار بين الذات والموضوع، فلا تتمظهر الذات عند إلغاء الموضوع، ولا يتحقق الموضوع في إلغاء الذات.

فمفهوم التوليد الذي قال به 'جابر عصفور' هو إدراك كلي في دراسة البنية، في إدراك الذات والموضوع، ولكي توجد البنية نفسها على المستوى المدروس. ويرى الناقد 'جابر عصفور' ضرورة "ربط الأعمال بكتابها، كما تعني ربط كتابة الأعمال بتأدية وظيفة ذات علاقة عمومية اجتماعية، أو طبقة تواجه مشكلا تاريخيا."[24]

إن مفهوم "البنيوية التوليدية" الذي حدده 'جابر عصفور' يلتقي مع التصور المنهجي للمفهوم الذي اقترحه 'غولدمان'، ذلك أن تصوره للمنهج يستبعد كل رؤية تجزيئية للبنية كما يرفض تصوره للمنهج كل رؤية (إمبريقية) سوسولوجية. فمثل هذا التصور لا يحقق البعد التكويني للبنية. "ومعنى هذا أن 'البنيوية التوليدية' منهج يتحرك في بعدين من حيث الظاهر، ولكنه بعد واحد معقد في حقيقة الأمر. أعني أنه منهج يقدم مدخلا داخليا وخارجيا لدراسة العمل الأدبي، وأنه يقوم على مراوحة مستمرة بين داخل العمل وخارجه، إنه منهج لا يفهم العمل الأدبي إلا باعتباره نسقا من العلاقات المتلاحمة داخليا، ولكنه لا يفهم هذا النسق كتجريد مطلق، أو نظام مستقل عما عداه مكتف بنفسه، بل يفهمه من حيث هو وظيفة دالة على مستوى التلاحم الداخلي نفسه. ولكن المنهج... يضطر للعودة إلى الخارج، حيث الطبقة أو المجموعة الاجتماعية للأديب المنتج، فلا يتوقف عندها إلا لكي يفهم رؤيتها، باعتبارها بنية أشمل ولدت بنية العمل الأدبي."[25]

وعلى هذا الأساس فإن تصور 'جابر عصفور' لمفهوم (التوليد) يجعلنا نطمئن إلى مثل هذا التصور لمفهوم المنهج التكويني، لكون الناقد صاغ رؤيته على فرضية من منطلق أن بنية العمل الأدبي متولدة عن بنية أشمل هي رؤية العالم باعتبارها البنية الخفية المكونة (المولدة) للبنية الجمالية الدالة، والتي لا يمكن أن تتوحد قيمتها إلا بربطها بما تولدت عنها.

واستخدم "سمير سعيد حجازي" نفس مصطلح "*البنيوية التوليدية*" دون أن يسهب في تحليل مفهومه. واكتفى بالقول بأن ترجمة المصطلح غامضة لا تؤدي المعنى المقصود في اللغة الأصل، دون أن يوضح سبب ذلك، ولم يتجاوز حدود هذه الملاحظة البسيطة التي جاء فيها أن ((البنيوية التوليدية، وهي ترجمة حرفية وغامضة ولا تؤدي المعنى المقصود به في اللغة الفرنسية أو في النظرية النقدية)).[26] ومثل هذا الطرح لا يجعلنا نطمئن إلى تصور دقيق لما أراده الباحث، وكان من المفروض أن يقترح مفهوما للمصطلح مادام أن الترجمة التي وقع عليها لا تؤدي المعنى المقصود.

ويبرز استعمال آخر للمفهوم عند "مدحت الجيار"، حيث يحصره في الإطار المنهجي لجدلية الفهم والتفسير دون أن يبين طبيعة العلاقة التي تربط "*الداخل بالخارج*"، ثم إن الباحث يطرح إشكالا آخر وهو اعتبار "البنيوية التوليدية" نظرية ومنهجا دون أن يوضح الفرق بينهما، وهذا ما

يستوحى من القول الآتي: إن ((دراسة البنيوية التوليدية كنظرية تعطي لنا منهجا لدراسة النص الأدبي من خلال وجهتين: الأولى داخلية تراعي العلاقات والأنظمة والعلاقات في النص الأدبي. والثانية خارجية تدرس علاقة هذه البنية كلها بالأطر الاجتماعية والنفسية التي تولد عنها النص الأدبي، وبذلك تمثل البنيوية التوليدية عيوب التركيز على مفهوم الانعكاس الآلي كما تتلافى عيوب النظريات الشكلية التي تفصل النص عن سياقاته الاجتماعية والنفسية)).[27]

أما المصطلح الثالث "*البنيوية التركيبية*" فقد استعمله الناقد السوري "جمال شحيد" وقد خصص دراسة كاملة لهذا المنهج. ويلاحظ في هذه الدراسة أن الناقد ناوب بين المصطلحين (التكوينية) و(التركيبية)، فلم يلتزم باستعمال مصطلح واحد، فمن جهة عنون دراسته "البنيوية التركيبية" غير أنه في ثنايا التحليل نجده يستعمل مصطلح ((البنيوية التكوينية" التي تبلورت بشكل أساسي على يد 'لوسيان غولدمان'، تحاول أن تحلل البنية الداخلية لنص من النصوص رابطة إياه بحركة التاريخ الاجتماعي الذي ظهر فيه.))[28] وأطلق على الفصل السادس من الكتاب عنوان "البنيوية التكوينية". والشاهد هنا أن "جمال شحيد" وظف مصطلحين يدلان على مفهوم واحد، وهو مفهوم يلتقي في منظوره مع المفهوم الذي حدده "غولدمان"، لكن الناقد بقي مترددا في قضية استعمال المصطلح.

وعلى كل فإننا يمكن أن نتخطى هذه الإشكالية ما دام الباحث قد وعى الطرح النظري الغولدماني وأدرك أبعاده المنهجية بوصف المنهج التكويني رؤية نقدية شاملة وليس مجرد تركيب أو تلفيق. فالبنيوية ((تكوينية" أو "توليدية" لا بد قبل كل شيء من التنويه بأن التكوين أو التوليد هذا لا يتضمن أي بعد زمني يعيد الشيء المدروس إلى تاريخ ولادته ونشأته. فالبعد الزمني في هذا الشأن ثانوي جدا... ويهدف هذا المصطلح، إن أخذ من منظور "غولدمان"، إلى إقامة توازن بين العالم الخارجي (...) والعالم الداخلي (...) إن هذا التوازن يتبدل من مجتمع إلى آخر ومن حقبة زمنية إلى أخرى.))[29]

في هذا السياق أشار "جمال شحيد*" إلى أن "غولدمان" نفسه لم يكن راضيا على استعماله لمصطلح البنية لما يوحي به من جمود وثبات وهو يريد من منهجه أن يكون' ديناميكيا' متجددا وهذا ما لم يؤده مصطلح البنية. فقد ((كان يخشى (أي غولدمان) السكون والثبات والجمود الذي يمكن أن تعنيه هذه الكلمة، ولذا فإن "غولدمان" يفكر في بنية دينامية متجددة دوما تلغي المعنى السلبي الذي كان يخشاه في البنية.)) (30) ويستند الباحث،هنا، إلى نص ل"غولدمان" يرتكز على أحد الضوابط الأساسية في المنهج البنيوي التكويني يقول فيه إن ((دراسة مجموعة من الأفعال البشرية وفهمها يفترض أن ندرسها دائما من زاويتين متكاملتين، تركيب البنية الذي يهدف إلى إيجاد بنية جديدة وتفكيك البنى القديمة التي تحققت في الماضي

والتي كانت تصبو إليها المجموعة الاجتماعية نفسها قبل ذلك بقليل.))[31] وهناك استعمال رابع للمصطلح ورد تحت اسم "*البنيوية الدينامية*" وهو استعمال محدود جدا لم يعرف انتشارا في الأوساط النقدية العربية. ويبدو أن "سمير حجازي" قد استوحى هذا المصطلح من دراسة "جمال شحيد" وهو المصطلح الذي ترجمه عن "غولدلمان"[32]، ويقول عن هذا الاستعمال ((إن الترجمة لمصطلح "Structuralisme Génétique" هو "البنيوية الدينامية" وليس "البنيوية التوليدية" كما هو شائع في نصوص النقد العربي، ذلك أن بعض الحواجز اللغوية التي تحول بين القارىء وبين الوصول إلى الدلالة العامة للنص الذي يحتاج إلى البحث في دقة مفاهيمه المعرفية كيلا يقع القارىء في دائرة التخبط والتشتت.))[34] إلا أن الباحث لم يكشف عن هذه الحواجز التي حالت بين القارئ والدلالة، كما أنه لم يبين المراجع التي استوحى منها المفهوم والمصطلح ' ولا عن دلالته الحقيقية وعلاقتها بالرؤية العامة للفلسفة التكوينية. ومن المؤكد أن الناقد قد استفاد استفادة مباشرة من دراسة "جمال شحيد" وغير مباشرة من دراسات وأبحاث "لوسيان غولدمان" دون أن يشير إلى ذلك.

نخلص من هذا التحليل إلى أن الدراسات النقدية العربية التي اعتمدت البنيوية التكوينية بوصفها مقاربات نقدية حديثة لم تستقر عند مفهوم واحد لمصطلح " Structuralisme Génétique" «، وبينت أن النقاد والباحثين العرب وظفوا أربعة مصطلحات، منها ما هو شائع في المقاربات النقدية كمصطلحي "التكوين" و"التوليد" ومنها من لم يعرف استعمالا شائعا مثل مصطلحي "التركيب" و" الدينامية". ويبدو أن سبب هذه المفارقة يرجع في الأساس إلى التفاوت النسبي الذي عرفته قراءات النقاد والباحثين للأصول الفلسفية الكبرى، ولأدبيات البنيوية التكوينية كما نظر (بتضعيف الظاء) لها أعلامها وفي مقدمتهم 'لوسيان غولدمان'. قد بدا أثر هذا التفاوت جليا في تصور النقاد والباحثين لمفهوم 'التكوين'، الأمر الذي لم يمكن بعضهم من القبض على فكرة البذرة المكونة للأعمال الأدبية. ومن هنا يمكن اختزال مواقف النقاد إزاء استعمالهم للمصطلح التكويني في موقفين:

موقف: لم يراع في تصوره الخلفية الخفية المكونة للإبداع وبالتالي لم يتصور المنهج على أنه: (تكوين+ بنية)، إذ لم يحاول البحث عن بنيته وبذرته المكونة لأصول المنهج التكويني وتمثل الإبداع الأدبي على أنه نوع من الجمع والتركيب بين البنيوية الشكلية وبين المنهج الاجتماعي الجدلي، وإن كانت هذه قراءة من القراءات التكوينية العربية، إلا أنها تبقى بعيدة عن التصور النظري لأصول البنيوية التكوينية التي ترجع في أصولها الكبرى إلى فلسفتين: مثالية ووضعية، ومنهما تفرعت المناهج.

وقد نتج عن هذا الفهم انحراف في قراءة وتطبيق المصطلحات، مما أدى إلى قراءة "مزدوجة" للعمل الإبداعي (شكلية واجتماعية)، لا قراءة وفق منهج ذي رؤية شمولية. ومن نتائج هذه القراءة تمثل البنيات العميقة الدالة على أنها انعكاس آلي للواقع. هذه رؤية نقدية لا تقبل بها البنيوية التكوينية التي تقول بتماثل البنيات. فالفصل بين الفهم والتفسير، أو بين المكون الباني وبنيته السطحية أدى إلى التلفيق المنهجي الذي قد لا يساعد على إقامة مبدأ "الانعكاس" أو "التماثل" البنائي كما يرتضي ذلك أعلام المنهج البنيوي التكويني. وما يلاحظ أن الباحثين الذين يمثلون هذا الاتجاه لم يتمكنوا من تعميق قراءاتهم في المنهج، وفي أصوله ومرجعياته النظرية والتطبيقية.

أما الفريق الثاني: يمثله الباحثون الذين تمثلوا المصطلح "البنيوية التكوينية" في أصوله ومرجعياته الفكرية والنقدية بغض النظر عن المصطلح المستعمل. وقد تمثل هذا الفريق مدلول المصطلح على أنه يتصل بجانبين، جانب الفهم وفيه تتم قراءة البنية العميقة الدالة والتعرف على مكوناتها الدلالية على أن تعبر عن رؤية المبدع للعالم، وهي رؤية الزمرة أو الجماعة التي ينتمي إليها المبدع. أما الجانب الثاني فيخص تفسير البنية، وهي المرحلة التي يتم فيها البحث عن "الجينات" الأصلية للإبداع أي البحث عن مكوناته في الواقع الاجتماعي والتاريخي والثقافي... ومثل هذا التصور للمصطلح ومضمونه هو الذي دعا إلى قراءة البنيات عن طريق التماثل والتناظر لتحديد رؤية المبدع.

نخلص مما تقدم أن المصطلح النقدي "البنيوية التكوينية" في الخطاب النقدي الحديث، لم يتخلص بعد من إشكالياته التي حصرناها في التذبذب والتلفيق والتداخل. ولن يستطيع النقد أن يتخلص من أزمته إلا إذا عمل بمبدأ التوحيد، أي توحيد جهود النقاد والباحثين والمترجمين بوضع معجم اصطلاحي خاص بالنقد الأدبي، ومرجعية كل المصطلحات المتداولة التي استخدمت بطرق غير دقيقة، والسعي لتأسيس هيئة نقدية تقوم بوظيفة الصياغة والتوحيد، ومراجعة المصطلح النقدي واللساني والبلاغي الموروث لتأسيس الصلة بين المصطلح الموروث والمصطلح الغربي.

The Genetic Structuralism and the Term Issues in Modern Arabic Critical Approaches

Dr.Nour-Eddine Seddar, *Faculty of literature, languages, social sciences and humanities, University of Mascara, Algeria.*

Abstract

The aim of this study is to prove the epistemological value of the term: 'genetic structuralism' taking as a starting-point the concept of 'genetic' in the view of western modern critical discourse. This term is considered as a strange concept in the modern Arabic criticism leading to a controversy in providing an accurate definition among Arab researchers. As a result, their approaches and studies were quite different.

From this perspective, my study is divided into two main parts. The first one is devoted to literary genetic concept as formulated in the western critical discourse especially according to one of the famous scholar in the field 'Lucien Goldman'. The second one deals with the concept as used in Arabic critical approaches in which different terms were given.

As a conclusion, the contemporary Arabic criticism does not possess a precise definition of the concept giving rise to two different trends in the use of the genetic structuralism concept in the Arabic critical studies.

قدم البحث للنشر في 2008/5/4 وقبل في 2009/1/26

الهوامش:

1 ـ فاضل ثامر، اللغة الثانية، في إشكالية المنهج والنظرية والمصطلح في الخطاب النقدي العربي، المركز الثقافي العربي، بيروت / الدار البيضاء، الطبعة الأولى، عام 1994،: 169

2 ـ م. س،: 170: 13

3 ـ فاضل ثامر، إشكالية المصطلح النقدي في الخطاب النقدي العربي، المجلة الثقافية، ع: 46، سنة ديسمبر 1998 ـ مارس 1999، الجامعة الأردنية،: 97

4 ـ مولاي علي بوخاتم (د)، مصلحات النقد العربي السيماءوي، الإشكالية والأصول 2003 / 2004،.: 28

5- Lucien Goldmann ; Marxisme et sciences humaines ;: 85

6 ـ تيري إيجلتون، الماركسية والنقد الأدبي،: 39

7 ـ لوسيان غولدمان، مقدمات في سوسيولوجية الرواية، ترجمة بدرالدين عرودكي،:229

8 ـ ميجان الرويلي، سعد البازعي، دليل الناقد الأدبي،: 41

9 ـ ـ محمد بنيس، ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب،مقاربة بنيوية تكوينية، (راجع المدخل المنهجي)

10 ـ ـ م. س،:22

11 ـ انظر، م.س،:23

* ـ م. س، راجع قائمة المصادر والمراجع

12 ـ محمد عزام، فضاء النص الروائي، مقاربة بنيوية تكوينية في أدب نبيل سليمان، 6

13 ـ م. س:،44

14 ـ الطاهر لبيب، سوسيولوجيا الغزل العربي، (راجع المقدمة).

15 ـ م. س، راجع الفصول الثالث والربع والخامس من الكتاب)

16 ـ الطاهر لبيب، سوسيولوجيا الغزل العربي (الشعر العذري نموذجا)، ترجمة مصطفى المسناوي،: 7

17 ـ لحميداني حميد، النقد الروائي والأيديولوجيا،:68

* ـ راجع، لحميداني حميد، الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي، دراسة بنيوية تكوينية، (المدخل)

18 ـ م. س،: 18 / 19

19 ـ رفيق رضا صيداوي، النظرة الروائية إلى الحرب اللبنانية،1975 ـ 1995،: 38

20 ـ م. س،: 38

21 ـ م. س،: 40

22 ـ صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر،: 59

23 ـ جابر عصفور (د) عن البنيوية التوليدية، مجلة فصول، المجلد الأول، ع 2، يناير 1981،: 86

24 ـ م. س: 87

25 ـ م. س،: 88

26 ـ سمير سعيد حجازي، النظرية الأدبية ومصطلحاتها الحديثة،: 51

27 ـ مدحت الجيار، النص الأدبي من منظور اجتماعي،: 55

28 ـ جمال شحيد، البنيوية التركيبية، دراسة في منهج لوسيان غولدمان،:9

29 ـ م. س،: 77 / 78

* ـ في دراسة له الموسومة: في البنيوية التركيبية، دراسة في منهج لوسيان غولدمان " وقد تناول فيها دراسة تحليلية للبنيوية التكوينية من خلال المؤلفات النظرية ل "غولدمان " وقد قسمه قسمين، أطلق على الأول منه عنوان '" من الجزئيات إلى النظرة الشمولية " تناول فيه ستة فصول مست الأصول النظرية للمنهج. أم القسم الثاني فعنونه " نصوص مختارة من أعماله " وكان دراسة تطبيقية لنصوص غولدمان النقدية ولمنهجه من خلال كتابه " الإله الخفي ". وأهم ما في كتاب " جمال شحيد " قائمة مفصلة وشاملة لمصادر الدراسة في اللغة الفرنسية، وفي اللغة العربية.

30ـ م.س،: 85

31_ Lucien Goldmann, Structuralisme Génétique en sociologie de la littérature , dans , Le structuralisme Génétique , l'œuvre et l'influence de Lucien Goldmann,:27 ((…Si la structure se définit par opposition au désordre , la structuration se définit moins par opposition que par complémentarité à la destructuration , ce qui nous donne une image plus exacte mais particulièrement difficile à développer.En effet , étudier et comprendre un ensemble de fais humains suppose toujours qu'on les étudie sous deux ongles complémentaire , en tant que processus de structuration orientés vers une structure nouvelle , et en tant que processus de déstructuration des anciennes structures déjà réalisées ou vers lesquelles tendait le même groupe social peu de temps auparavant.)):27

-

32_ Voir, Lucien Goldmann, Structuralisme Génétique en Sociologie de la littérature , dans , le structuralisme Génétique , l 'œuvre et l'influence de Lucien Goldmann,: 26-27